مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

الإسماعيلية

أ. السائح علي حسين

ترد في مصادر التاريخ العام وكتب الفرق مجموعة من أسماء تدور حول مسمى واحد وهي: ـ الإسماعيلية، الفاطمية، العبيديون، الخ. . .

وكان للصراع السياسي مدخل مقبول ـ لتعاطف العامة مع أصحاب المطامع ـ وهو الدفاع عن حق آل البيت في الخلافة، ولكن عبارة آل البيت عبارة مطاطة نتج عنها جدل طويل.

فالدولة العباسية تدعي رسوخ قدمها في آل البيت لكون العباس عم الرسول وهو أقرب من علي ابن عمه في حالة الإرث ـ والخلافة من باب أولى ـ والحركة الفاطمية تسمت بهذا الاسم رداً على هذه الحجة لأن الأبناء أقرب من الأعمام إرثاً وخلافة، ذلكم هو بعض المنطق الذي استعمل لإقناع الجماهير.

وتحت التستر باسم فاطمة، نشأت الدولة الفاطمية المعروفة في التاريخ التي أزاحت من أمامها الدولة العباسية من أقصى المغرب إلى مشارف بغداد.

والإسماعيلية تنتسب إلى إسماعيل (الإمام السابع) ابن جعفر الصادق وهو الإمام السادس باتفاق جميع فرق الشيعة وقد لاحظ على ابنه إسماعيل انحرافاً عن تعاليم الإسلام بتعاطيه الخمر وانضمامه إلى بعض غلاة الشيعة فأنكر ذلك عليه وعزله عن الإمامة وولى ابنه موسى الكاظم بدلاً منه ـ وهو الذي تتبعه فرقه الشيعة الإمامية ـ

وقد مات إسماعيل في حياة أبيه وخاف جعفر من ادعاء أتباعه بقاءه حياً فأشهد الناس على موته وهو مسجى في قبره بمقبرة البقيع وأرسل إلى الخليفة يعلمه بموته قطعاً لدابر الفتنة.

ولكن أنصاره ادعوا بأنه شوهد حياً بعد هذا، وقالوا إن الذي فعله جعفر الصادق هو من قبيل التقية حتى لا تقتل الدولة ابنه الإمام، وإن مسألة الانحراف عن تعاليم الإسلام غير واردة لأن الإمام معصوم.

وهناك جدل حول نسبة بعض الدعوات الباطنية إلى الإسماعيلية كالقرامطة والحشاشين فالذين يرون أن الفرقتين من الإسماعيلية استندوا إلى تشابه الأصول الفكرية الأولى.

والذين ينفون هذا ينظرون إلى مسلك الدولة الفاطمية المنكر لأعمال القرامطة والحشاشين من جهة وإلى معاداة الحركتين للفاطميين في بعض الأوقات من جهة أخرى.

فالقرامطة مثلاً أرسلوا للفاطميين يبشرونهم بالفتك بالحُجَّاج في الحرم ونقلهم للحجر الأسود من مكانه إلى الإحساء على اعتبار هذا هدماً لكرامة الدولة العباسية، وفي فترة لاحقة طلبوا من الحكومة العباسية السماح لهم بحمل أعلامها وشعاراتها لمحاربة الفاطميين متهمين مؤسس دولتهم بأنه يهودي أو مجوسي، وعلى الرغم من أن الحيلة لم تنجح في المرتين إلاّ أنهم في المرة الثانية تبرعوا بحمل الأعلام العباسية (السوداء) بأنفسهم وكتبوا في أسفلها [السادة الراجعون إلى الحق].

ويبدو لي أن هذه الحركات جميعها تتفق على شيء واحد وهو زعزعة الدولة العربية الإسلامية، وتغلب ذوي الأهواء والمطامع من الجنسيات التي دخلت الإسلام مغلوبة على أمرها فاتفقت في الاختفاء وراء الستار الشيعي المناصر في الظاهر لآل بيت الرسول ﷺ واختلفت عند تقدير كل منها لمصالحها الخاصة.

والدليل على هذا أن الإسماعيلية انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر في مواجهة الشيعة الإمامية التي ترى الإمامة لموسى الكاظم ـ كما أراد جعفر الصادق

نفسه ـ وتسترت بفاطمة الزهراء في مواجهة العباسيين كما سبق.

ومن نسل إسماعيل ـ كما يدعي أتباعه ـ كان عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في الجزائر الذي بنى المهدية وجعلها عاصمة ملكه في بدايته.

حيث أعلن قيام دولته في 21 ربيع الآخر سنة 297هـ ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى أطاح بالدويلات المستقلة في المغرب وهي:

الأغالبة في تونس، والأدارسة في فاس، والرستميون (الإباضية) في تاهرت، وبنو مدرار (الخوارج الصفرية) في سجلماسة، ثم استولى الفاطميون على مصر، وأصبحت القاهرة عاصمة الدولة في جمادى الأولى 359هـ.

وانتشر فكر الدولة وأنصارها المتعصبون لها في مختلف بقاع العالم الإسلامي حيث كان دعاة الإسماعيلية في اليمن قبل أن يصل الدعاة إلى المغرب، وقامت عدة دويلات إسماعيلية في اليمن باسم علي بن الفضل، ومنصور اليمن (ابن حوشت) ولكن أشهر دولة إسماعيلية فيه كانت الدولة الصليحية.

والشيء الملاحظ هو أن أفكار هذه الدولة وفلسفتها ونظرتها للكون والحياة وما هو فوق المادة غير مستقرة وذات طابع واحد، بل هي متلونة وفق مقتضيات الزمان والمكان والأشخاص انسجاماً مع فكرة التقية المشهورة في الفكر الشيعي، وهذا ما يفسر التضارب الذي يلاحظه القارئ لمؤلفات هبة الله الشيرازي وحميد الدين الكرماني وعلي بن الوليد والقاضي النعمان ورسائل إخوان الصفا ورسالة الجامعة وغيرها كثير.

كما يلاحظه أيضاً من يقارن تصرفات المعز لدين الله ويقارنها بأفعال علي بن الفضل في اليمن أو من ينسبون إلى الإسماعيلية كالحسن بن الصباح زعيم الحشاشين وأبي سعيد الجنابي زعيم القرامطة.

كما يتضح الفرق بين مناهج الإسماعيليين القدامى في بث الدعوة وترتيب الدعاة والاعتماد على الفلسفة والحوار وبين منهج آغا خان ومن تلاه من الاستسلام لمغريات الحياة والاعتماد على المشاريع الاقتصادية والتجارة.

والجدير بالملاحظة أن الدولة والفكر الفاطمي ـ الإسماعيلي ـ كان ظاهرة فريدة في العالم العربي، فبقدر ما اكتسبت من انتشار وقوة أزاحت كل الدويلات المستقلة في بدايتها كانت سرعة انتهائها بمجرد سقوط الدولة الفاطمية في مصر، ولم تبق لها إلا جيوب قليلة في اليمن انتهت باستيلاء الأتراك عليها، وأقلية قليلة في بلاد الشام، ذلك لأن الجانب الفكري عبارة عن خليط غير متجانس من فلسفات وأديان شتى لفقت لتخدم فكرة سياسية معينة وهذا التلفيق لا يستسيغه الفكر العربي الخالص.

أما آثار هذه الدولة في الجانب المادي فقد قدمت للحضارة العربية الإسلامية إبداعات لا زالت شاهدة على ذلك تمثلها المساجد والأسوار والقصور والمدارس بالقاهرة.

انقسام الإسماعيلية:

في أخريات الدولة الفاطمية في مصر بدأت الدولة الفاطمية تضعف وتسلط الوزير بدر الجمالي على شؤون الدولة وبدأ يميل إلى المستعلي الابن الأصغر للخليفة بدلاً من أخيه نزار صاحب الحق في وراثة الملك بوصفه ولياً للعهد، وانقسم العامة بين مؤيد لنزار ومؤيد للمستعلي، فسميت الفرقتان في التاريخ بالنزارية والمستعلية بالإضافة إلى فرقة انشقت بعد وفاة الحاكم بأمر الله، وسميت الحاكمية وهي الدروز وفرقة تتبع الطيب الإمام الطفل الذي اختفى في غار وتعتقد بأنه غائب سيعود وإليه نسبت فقيل لها الطيبية، ومجموعات أخرى صغيرة كالسليمانية في اليمن والبهرة في الهند.

وهي فرق لا يكاد يجمعها إلاّ الاعتقاد بأن إسماعيل هو الإمام السابع وليس موسى الكاظم كما يعتقد الإمامية.

وفي العصر الحديث بدأ ذكر هذه الفرق يكاد يندثر من حياة الناس لولا حرص الاستعمار على إشاعة الفتنة وتمزيق المسلمين بإحياء العصبيات والبدع التي شاعت في عصور سحيقة.

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا تفتح أبواب

التسابق على خدمة أهدافها وانتقاء أصلح من ينفذ أغراضها، فعلى الرغم من ارتماء الزعامة النزارية القديمة من أسرة حاجي مولوي في أحضانها إلا أنها فضلت عليها شاباً طموحاً من أصل فارسي هو حسن علي شاه، ونتيجة طعن الطوائف الهندية في زعامته، أخذ الصراع طريقه للمحاكم، وظهرت وثائق وحجج أحيت تفاصيل كانت غائبة عن الباحثين.

ونتيجة اتجاه الدولة إلى تدعيم الزعيم الديني الجديد فقد حكم القضاء الإنجليزي لصالحه وتوالت الزعامات المؤيدة من الإنجليز من هذه الأسرة إلى أن تكللت بالسلطان محمد شاه الملقب آغا خان الذي قلده الاستعمار مناصب عالية مكافأة له على خدماته كان آخرها رئاسة عصبة الأمم من سنة 1934 ـ إلى 1937، وقد توفي في 11/ 7/ 1957 ودفن بأسوان تنفيذاً لوصيته.

ثم خلفه حفيده كريم خان الذي رشحه جده لتولي إمامة الإسماعيلية بعده على الرغم من أن والده علي خان كان حياً في ذلك الوقت، بالإضافة إلى عمه صدر الدين الذي أصبح الأمين العام المساعد لشؤون اللاجئين بالأمم المتحدة، وقد نال هذا المنصب بمساعدة زميله في الدراسة/ جورج بوش.

والشيء الملاحظ هو أن آغا خان وأتباعه لم يعد يعنيهم كثيراً البحث في مسألة الإمامة أو الاعتقاد وشؤون الدعوة إلاّ بالقدر الذي يجعل الطائفة مترابطة اجتماعياً ومنظمة اقتصادياً بما يلائم الحضارة الغربية الحديثة.

وسجل استطلاع قامت به مجلة العربي في العدد (289) الصادر في ديسمبر سنة 1982م، أن قبائل الهونزا شمالي باكستان 95٪ منهم إسماعيليون لا يصلون الجمعة ولا توجد لديهم مساجد وأن من يصلي منهم يتجه بوجهه للقبلة وبقلبه للإمام المقيم بضاحية من ضواحي باريس.

وهم اليوم يتوزعون في الهند وإيران وخراسان وزنجبار وتنجانيقا ولهم حي خاص بهم في مطرح بالقرب من مسقط بعمان، وأفغانستان، ولهم جاليات في أوروبا وأمريكا وكلهم يتجهون بقلوبهم لكريم خان على اعتقاد أنه من بقية الصالحين من آل البيت.

المصادر والمراجع

1 ـ كتب التاريخ/ الطبري والمسعودي وابن الأثير.

2 ـ أخبار القرامطة/ نصوص تراثية غير منشورة/ حققها د. سهيل زكار/ د. حسان 2/ 82.

3 ـ رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد/ د. وداد القاضي/ الثقافة بيروت 1/ 70.

4 ـ تاريخ الخلفاء الفاطميين/ إدريس عماد الدين/ محمد اليعلاوي/ دار الغرب الإسلامي.

5 ـ المجالس والمسايرات/ القاضي النعمان بن محمد/ محمد اليعلاوي وآخرون/ م الرسمية تونس/ 78.

6 ـ تأويل دعائم الإسلام/ القاضي النعمان/ محمد حسن الأعظمي/ دار المعارف 2 دت.

7 ـ اختلاف أصول المذاهب/ النعمان بن محمد/ د.م غالب/ د. الأندلس 3/ 83.

8 ـ راحة العقل/ أحمد حميد الدين الكرماني/ د. مصطفى غالب/ دار الأندلس 1/ 67.

10 ـ المجالس المؤيدية/ هبة الله الشيرازي/ د. مصطفى غالب/ د. الأندلس/ دت.

11 ـ سرائر أسرار النطقاء/ جعفر منصور اليمن/ د.م غالب/ د. الأندلس 1/ 84.

12 ـ الكشف/ جعفر منصور اليمن/ د.م غالب/ د. الأندلس 1/ 84.

13 ـ فاطمة الزهراء والفاطميون/ عباس محمود العقاد/ دار الكتاب العربي.

14 ـ الباطنية وموقف الإسلام منهم/ د. جميل محمد أبو العلا/ د. المعارف 1/ 89.

15 ـ أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة/ برنارد لويس/ راجعه د. خليل أحمد خليل/ د. الحداثة 1/ 80.

16 ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ آدم متز/ د. محمد عبد الهادي أبو ريده/ د. الكتاب العربي 4/ 64.

17 ـ دائرة المعارف الإسلامية جـ3 ط العربية.

18 ـ القرامطة بين المد والجزر/ د.م. غالب/ د. الأندلس 1/ 79.

19 ـ الحاكم بأمر الله/ د. عارف تامر/ د. الجيل 1/ 80.

20 ـ العزيز بالله/ د. عارف تامر/ د. الآفاق الجديدة 1/ 82.

21 ـ كتاب السيطرة العربية/ فان فلوتن/ تقديم ودراسة واسعة/ د. إبراهيم بيضون/ د. الحداثة/ 1/ 80 وغيرها كثير.